أعمال موجهة مادة: بيبليوغرافيا النقد الأدبي القديم

الحصة الرابعة: المقابسات لأبي حيات التوحيدي

ترجمة للمؤلف

هو علي بن محمد بن العباس التوحيدي البغدادي، كنيته (أبو حيان)، وهي كنية غلبت على اسمه فاشتهر بها ولد سنة 310هـ- 922م، شيرازي الأصل، وقيل نيسابوري، ووجدت بعض الفضلاء يقول له الواسطي، صوفي السمت والهيئة، قدم بغداد فأقام بها مدة، ومضى إلى الريّ وصحب الصاحب أبا القاسم إسماعيل بن عباد وقبله أبا الفضل ابن العميد فلم يحمدهما، وعمل في مثالبهما كتابا.

وكان متفننا في جميع العلوم من النحو واللغة والشعر والأدب والفقه والكلام على رأي المعتزلة، وكان جاحظيا يسلك في تصانيفه مسلكه ويشتهي أن ينتظم في سلكه، فهو شيخ في الصوفية، وفيلسوف الأدباء، وأديب الفلاسفة، ومحقق الكلام، ومتكلم المحققين، وإمام البلغاء، وعمدة لبني ساسان، سخيف اللسان، قليل الرضى عند الإساءة إليه والإحسان، الذمّ شانه والثلب دكانه، وهو مع ذلك فرد الدنيا الذي لا نظير له ذكاء وفطنة وفصاحة ومكنة، كثير التحصيل للعلوم في كلّ فن حفظه، واسع الدراية والرواية، وكان مع ذلك محدودا محارفا يتشكّى صرف زمانه، ويبكي في تصانيفه على حرمانه. "ولم أر أحدا من أهل العلم ذكره في كتاب ولا دمجه في ضمن خطاب، وهذا من العجب العجاب، غير أن أبا حيان ذكر نفسه في (كتاب الصديق والصداقة)[1] عاش أكثر أيامه في بغداد وإليها ينسب".

وقد امتاز أبو حيان بسعة الثقافة وحدة الذكاء وجمال الأسلوب، فهو رجل موسوعي الثقافة، سمي أديب الفلاسفة وفيلسوف الأدباء كما، امتازت مؤلفاته بتنوع المادة، وغزارة المحتوى؛ فضلا عما تضمنته من نوادر وإشارات تكشف بجلاء عن الأوضاع الفكرية والاجتماعية والسياسية للحقبة التي عاشها، وهي -بعد ذلك- مشحونة بآراء المؤلف حول رجال عصره من سياسيين ومفكرين وكتاب.

[1]- ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ج5، ص 1922-1923.

من بين من تتلمذ على يدهم التوحيدي: أبو سعيد السيرافي :أخذ عنه النحو و. التصوف أبو زكريا يحيا بن عدي المنطقي :أخذ عنه الفلسفة علي بن عيسى الرماني :أخذ عنه اللغة وعلم الكلام.

وفاته وآثاره

توفي التوحيدي في سنة 414هـ - 1023م، تاركا كتب كثيرة منها: المقابسات، الإمتاع والمؤانسة، البصائر والذخائر وهو عبارة عن موسوعة اختيارات ضخمة، تقع في عشرة أجزاء، انتخبها أبو حيان من روائع ما حفظ وسمع وقرأ، الصداقة والصديق وهو عبارة عن رسالة أدبية تشتمل على الكثير من أخبار الأدب المتعلقة بموضوع الصداقة والأصدقاء، أخلاق الوزيرين ويسمى أيضا **مثالب الوزيرين:** و كتاب نادر في موضوعه، جمع فيه أبو حيان مشاهداته ومسموعاته عن الوزيرين :ابن العميد والصاحب بن عباد وكان قد اتصل بهما فحرماه ومنعاه ولم يجد عندهما ما كان يؤمله من حظوة وصلة وإكبار.

تسمية الكتاب

المقابسات مشتقة من فعل قبَسَ، يُقال: "يقبس قبسًا، ومنها قبس من نارًا فأقبسه: أي أعطاه منها"... ومعنى المُقابسات أن يشترك اثنان أو أكثر في محاورة علمية أو فلسفية فيقبس أحدهما العلم والمعرفة من الآخر ويعطيه ما عنده منها

هذا الكتاب هو ثمرة لمسامرات سبع وثلاثين ليلة نادم فيها الوزير أبا عبد الله العارض .كتبها لصديقه أبي الوفاء المهندس، تقلب فيها الكلام وتنوع من أدب إلى فلسفة إلى شعر إلى مجون إلى فلك إلى حيوان إلى ما شاءت ثقافة تلك العصر أن تأخذنا فهو أشبه بموسوعة غير مرتبة ودائرة معارف لا نظام فيه، وبالإضافة إلى قيمة الكتاب الأدبية، هو أيضا يتفرد بنوادر لم يوردها غيره كما يكشف –وعلى امتداد ثلاثة أجزاء عن بعض جوانب الحياة السياسية والفكرية والاجتماعية لتلك الأيام.

مضمون الكتاب

كتاب المقابسات هو واحد من أهم كتب أبي حيان التوحيدي، ويعتبر الكتاب من أعمدة الكتب في التراث العربي، يؤرخ هذا الكتاب لتاريخ الفلسفة العربية الإسلامية في القرن الرابع

الهجري، يطرح فيه صاحبه خلاصة مجالس الأدباء، والفلاسفة، والمهتمين بالمنطق في عصره، ويقدمها بأسلوب أدبي يتسم بالبلاغة، فالكتب ذات جوهر وذات بناء لفظي متميز.

اشتمل الكتاب على موضوعات متعددة في الفلسفة العربية الإسلامية طرحها على شكل مقابسات منفردة وصل عددها إلى مئة وتسعة، ومن أبرز الموضوعات التي تطرق لها الكتاب ما يأتي:

الموضوع الأول: خصص الكاتب لهذا الموضوع عدة مقابسات، وتحدث فيه عن وجوب تطهير النفس وتجريدها من الشوائب البدنية، كما تحدث عن علم النجوم وهل هو خال من الفائدة دون سائر العلوم؟ ، وناقش فكرة أن الإنسان قد يجمع أخلاقاً متباينة كما تحدث في الناموس الإلهي، ووضعه بين الخلق، وتطرق للحديث في شرف الزمان والمكان وتفاوت الناس في الفضيلة.

الموضوع الثاني: أفرد له عدة مقابسات تحدث فيها حول علة تفاوت وقع الألفاظ في السمع، والمعاني في النفس، ومن ثم تحدث عن كتم السر وعلة ظهوره، وناقش فكرة ولوع كل ذي علم بعلمه، ودعواه أن ليس في الدنيا أشرف من علمه، كما تحدث في فعل الباري تعالى هل هو ضرورة أو اختيار أو ماذ؟ .

الموضوع الثالث: تحدث فيه حول عدة موضوعات فلسفية ومن أهمها أن مبدأ الجوهر هو الصورة والمادة، ومبدأ الحكم هو النقطة والوحدة، ومبدأ الكيف هو السكون والحركة . كما تحدث حول في هل ما عليه الناس من السيرة والاعتقاد حق كله أو أكثره حق أو باطل كله أو أكثره باطل؟ وتطرق للحديث في قول الإنسان حدثتني نفسي بكذا وكذا، وتحدث حول في السماع والغناء وأثرهما في النفس وحاجة الطبيعة إلى الصناعة، وتطرق للحديث عن في أن النظر في حال النفس بعد الموت مبني على الظن والوهم وتطرق للحديث عن أن فضيحة حسيب لا أدب له أفظع وأشنع من فضيحة أديب لا حسب له.

كما تحديث عن موضوعات كثيرة منها:

الفرق ما بين المنطق والنحو من المناسبة، الفرق بين ظرف الزمان وظرف المكان، الطبيعة وكيف هي عند أهل النحو واللغة، معارف الناس وأقسامها بالقول المجمل على التقريب أن اليقظة التي لنا بالحس هي النوم والحلم الذي لنا بالفعل هو اليقظة، هل يقال الإنسان ذو نفس كما يقال هو ذو ثوب؟ هل هنا غير المعقول والمحسوس؟ أن الفاعل الأول هو علة المحسوسات

والمعقولات هل يقال إن الباري تعالى لا شيء؟ أنه لو اقتضت إرادة الباري عدم البعث والنشر لما قدح ذلك في ألوهيته، علة امتناع الرؤيا في المنام الحركة والسكون وأيهما أقدم؟ أن الموجود على ضربين موجود بالحس وموجود بالعقل...

رأي العلماء فيه

قدم الذهبي لترجمته في مصنفه (سير أعلام النبلاء) بقوله: "الضال الملحد أبو حيان، علي بن محمد بن العباس، البغدادي الصوفي، صاحب التصانيف الأدبية والفلسفية، ويقال: كان من أعيان الشافعية... كان أبو حيان هذا كذابا قليل الدين والورع عن القذف والمجاهرة بالبهتان".

قال أبو الفرج بن الجوزي: زنادقة الإسلام ثلاثة :ابن الراوندي، وأبو حيان التوحيدي، وأبو العلاء المعري، وأشدهم على الإسلام أبو حيان، لأنهما صرحا، وهو مجمج ولم يصرح...) انتهى.

قال ابن حجر العسقلاني (في لسان الميزان) :بقي إلى حدود الأربع مائة ببلاد فارس وكان صاحب زندقة وانحلال.

حادثة إحراق كتبه

جاء في كتاب بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة للإمام جلال الدين السيوطي، أن أبا حيان لما انقلبت به الأيام رأى أن كتبه لم تنفعه وضن بها على من لا يعرف قدرها، فجمعها وأحرقها، فلم يسلم منها غير ما نقل قبل الإحراق.

وقد أشار إلى هذه الحادثة ياقوت الحموي أثناء ترجمته له في معجم الأدباء وأورد رسالة طويلة من أبي حيان إلى أحد الفضلاء الذين لاموه على صنيعه